الهداية القرآنية في تعظيم الله عزّ وجل من خلال النموذج اليهودي

—عرض مقارن بالتوراة—

أ.د. محمّد بودبان

أستاذ في مقارنة الأديان

مدير مخبر الدراسات العقدية ومقارنة الأديان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية: قسنطينة-الجزائر

الملخص

تهدف هذه المقالة إلى عرض الهداية في كلام الله تعالى في القرآن العظيم فيما يتعلَّق بتعظيمه من خلال عرضٍ عكسيٍّ للمسألة؛ وهو الكلام عن بني إسرائيل وحالهم وقصصهم وسلوكاتهم اتُّجاه ربِّهم، والتي تصف بني إسرائيل –في كثير من محطَّاتهم التاريخية– بأنَّهم لم يقدُرُوا الله تعالى حقَّ قدره.

وأمَّا عن كيفية تحقيق هذا المقصود فسيكون: باستقراء مجموع الآيات القرآنية التي تتحدث عن خصال بني إسرائيل منذ أبيهم النبيِّ الصالح: "يعقوب" عليه السلام إلى زمان النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ بل وإلى ما أطلعنا عليه الله سبحانه وتعالى ممَّا يكون من شأنهم في قابل الأزمان وإلى قيام الساعة. ثمَّ بعد ذلك أقوم بتصنيف تلك الآيات موضوعيًّا وتحليلها؛ لأجل استنباط الهدايات الواردة فيها. وفي الخطوة الثالثة أقوم في الجهة المقابلة بمقابلة النتائج وعرضها على نصوص التوراة الموجودة اليوم بين أيدي اليهود؛ وهو ما سيقفنا على نتائج تطبيقية متعلِّقة بالهداية القرآنية في مسألة تعظيم الخالق من خلال نموذجٍ عكسيٍّ.

كلمات مفتاحية: توراة، قرآن، تناخ، موسى، يسوع، تعظيم.

Abstract :

This article aims to clarify the quranic's guidance about the glorification of the Almighty God. This work will be achieved through a reverse presentation of the issue: through a deep readings in verses talking about the history of children of Israel ; their stories and behaviors towards their Lord, which describes that the Children of Israel - in many of their historical stations - did not truly appreciate God Almighty capacity.

To achieve this intent, I will extrapolate all of the Qur'anic verses that talk about the characteristics of the children of Israel since their ancestor father ; the righteous Prophet: "**Jacob**", peace be upon him ; until the time of the Prophet Mohamed, may God's prayers and peace be upon him; to the times of nowedays. Then, I will classify and analyze objectively those verses. In final step, I will compare the results to the texts of the Torah, which would show us the applied results related to the Qur'anic guidance in the matter of glorifying the Creator.

Keywords : Torah, Children of Israel , Quran, Moses, Jesus.

مقدِّمة

إنَّ الله سبحانه وتعالى قد قصَّ على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم في القرآن الكريم من أخبار من سبق؛ يثبِّتُ به فؤادَهُ بما يريه من سنَّته في خلقه؛ وخاصَّةً فيما يتعلَّق بمن أرسل فيمن قبله من المرسلين؛ وما كان من أقوامهم من اتِّباعٍ أو تكذيبٍ، وإذايةٍ لهم؛ ومن شأن ذلك تحذيرُ أمَّته ممَّا أصاب الأقوام المكذِّبة باجتناب السير على خطاهم، وتكرار قيلِهِم أو عملهم. فإنَّها السَنَنُ، تصيب اللَّاحقَ كما أصابت السابق سلبًا أو إيجابًا.

وأكثرُ من قُصَّ خبرُهم هم بنو إسرائيل؛ جزءٌ من ذلك في الصالح من أمرِهِم، وأكثرُهُ في سيِّئِ صنيعِ كثيرٍ منهم. وكان أكثرُ الكلام في قوم موسى من الذين قالوا لربِّهم "**إنَّا هُدنا إليك**" وجزءٌ آخر في الذين قالوا: "**نحن أنصار الله**" النَّصارى.

وهذا الاهتمام البالغ له آثارُه الواقعيَّة في المجتمع الإسلامي زمانَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وإلى أيامنا هاته، وإلى قيام الساعة؛ بحيث ترتسم من خلاله نماذج التعايش، ونماذج الصِّراع، ونماذج الدعوة، وعدالة الإسلام مع الآخر. وفوق كلِّ ذلك أنَّه يُعطي للمسلمين نموذجًا لما ينبغي أن يكونوا عليه؛ فقد خُطَّت لهم السبيل، وقُرِّرت لهم؛ وحُذِّروا السبل المنحرفة بهم عن السبيل، نظريًّا بالأمر والنهي، وبنماذج عمليَّة منها نموذجٌ عكسيٌّ للمسألة، عمليٌّ تاريخيٌّ واقعيٌّ ببني إسرائيل، نموذج يستغرق تاريخَهم، وقابلَ أيَّامهم؛ بل وحالهم يوم القيامة مؤمِنِهم وقاسِطِهم. كما إنَّ إيراد نموذج بني إسرائيل في القرآن الكريم خطابٌ للحاضر منهم أن يدخلَ في المسلمين؛ فيؤتى الأجرَ مرَّتين.

وإنَّ اتِّباع الهدي تعظيمٌ لمنزل الهدى؛ والتنكُّب عنه تقصيرٌ في جنب الهادي، وانتقاصٌ من قدره الواجب له؛ ويزداد ذلك كلَّما قويت الإرادةُ في العصيان والعبث والتبديل والتغيير والافتراء والكتمان، وعدم القيام بما يوصي به ذو الجلال والإكرام.

وفي تاريخ بني إسرائيل وقصصهم في القرآن الكريم يتَّضح للمؤمن ذلك بشكلٍ بارزٍ جدًّا؛ وبأمثلةٍ تفصيليَّة متكاثرة؛ وذلك ما نسعى إلى إبرازه في هذا البحث؛ حيثُ نشفع كلامنا – مع كفاية القرآن العظيم– بالأمثلة من كتب بني إسرائيلَ التي يؤمنون

بها؛ فيكون الشاهد عليهم الكتابُ المهيمنُ؛ ويخذلهم الكتاب الذي ءامنوا به وقد حرِّف وغيِّر.

1/ وصف للإطار العام لنموذج بني إسرائيل في القرآن الكريم.

عرَّفنا الله تعالى بهم بأنَّهم ذرِّية النبيِّ العبد الصالح: "إسرائيل"، الذي هو يعقوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ**﴾[1]، قال الشّوكاني: «اتَّفق المفسِّرون على أنَّ إسرائيل هو يعقوبُ بن إبراهيم عليه السلام»[2].

وورد في سفر التكوين[3]: «**فقال: لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنّك جاهدتَ مع الله والنّاس وقدرتَ**».

ثمَّ عرَّفنا الله تعالى فضلَهُم؛ قال عزَّ وجلَّ: ﴿ **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ**﴾[4]. وأخبرنا تعالى عن تذكير موسى عليه السلام لهم بذلك: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وءَاتَاكم مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ**﴾[5]. قال الشوكاني: "قد كثر الملوك فيهم كما كثر الأنبياء، فهذا وجه الامتنان"[6].

ثمَّ بيَّن الله تعالى لنا سبب التفضيل؛ إذِ اللهُ تعالى يفعل ما يشاء، ويؤتي فضله من يشاء وهو الواسع العليم، ذو الفضل العظيم، وهو طيِّب لا يقبل إلا طيِّبا، ولا يصطفي إلا التقيَّ والأتقى، وهو مع الصالحين بتوفيقه وهدايته، ومحبّته ورعايته، فإذا كان قد فضَّل بني إسرائيل على عالمي زمانهم، فذلك لوجود الصالحين فيهم من

1- آل عمران 93

2- محمَّد بن علي بن محمَّد الشَّوكاني: **فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدِّراية من علم التفسير**؛ اعتناء يوسف الغوش، (ط4)، دار المعرفة: بيروت- لبنان، 2007م، (231/3).

3- تكوين 32: 28

4- البقرة:47، 122

5- المائدة:20

6- فتح القدير، مرجع سابق، (363/6).

أحبار، وعلماء، وعُبَّاد وزهَّاد، قال تعالى: ﴿**وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾[1].

وقد ورد في السنَّة النبويَّة المطهَّرة ما يدلُّ على أنَّهم أمَّةٌ يدخل منهم خلق كثيرٌ الجنَّة من بعد أمَّة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. روى البخاريُّ عن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم « عُرضت عليَّ الأمم فجعل النبيُّ والنبيَّان يمرُّون معهم الرَّهط، والنبيُّ ليس معه أحد، حتَّى رفع لي سوادٌ عظيم، قلت ما هذا؟ أمَّتي هذه؟ قيل هذا موسى وقومُه. قيل انظر إلى الأفق، فإذا سواد يملأ الأفق، ثمَّ قيل لي: انظر ههنا وههنا في آفاق السَّماء، فإذا سوادٌ قد سدَّ الأفق، قيل هذه أمَّتك، ويدخل الجنَّةَ من هؤلاء سبعون ألفا بغير حساب...»[2].

ثمَّ أخبرنا اللهُ تعالى أنَّه سُلبت منهم الخيريَّة، والله عزَّ وجلَّ يخبر أنَّ سلبه للنِّعمةِ لا يكون إلا إذا تغيَّرت القلوب من الحق إلى الباطل: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[3]. وقال: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[4]. فالذي يغيِّرُ من نفسه من خيرٍ إلى شرٍّ فلا يطمعنَّ أن يرفعه الله تعالى إلى مصافِّ الأتقياء لا بنسبٍ ولا ادِّعاءٍ: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾.[5]

وقد ورد في كتبهم، في "سفر إرميا": « **ها إنَّكم متَّكلون على كلام الكذب الذي لا ينفع: أتسرقون، وتقتلون، وتزنون، وتحلِفون كذبًا وتُبخِّرون للبعل؛**

1- الأعراف: 159.

2- البخاري: الطّب؛ باب من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتو، رقم 5705.

3- الرعد:11.

4- التوبة:53.

5- المائدة: 18.

وتسيرون وراء آلهةٍ أخرى لم تعرفوها، ثمَّ تأتون وتقفون أمامي في هذا البيت الذي دُعِيَ باسمي عليه وتقولون قد أنقذنا..؟»[1].

وورد قبل ذلك في "سفر التثنية" في صورةٍ سَنَنِيَّة: « **إذا ولَدْتُم أولاداً وأولاد أولادٍ؛ وأطلتم الزمان في الأرض، وأفسدتم؛ وصنعتم تمثالاً منحوتاً صورةَ شيءٍ ما، وفعلتم الشرَّ في عينيِّ الرَّب إلهكم لإغاظته؛ أشهد عليكم اليوم السماء والأرض أنَّكم تبيدون سريعاً من الأرض التي أنتم عابرون الأردن إليها لتمتلكوها. لا تطيلون الأيَّام عليها، بل تهلكون لا محالة؛ ويبدِّدكم الرَّب في الشُّعوب، فتبقون عدداً قليلاً بين الأمم التي يسوقكم الرَّب إليها».**[2]

وأخبرنا الله تعالى أنَّه كان يعاقب الذين هادوا، ويبتليهم لعلَّهم ينزِعون ويرجعون؛ فقد عاقبهم بتحريم بعضَ الطيّبات مثلا: ﴿**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا**﴾[3]. وعاقب الذين كانوا مع موسى وجبنوا عن القتال بالتّيه مدّة أربعين سنة: ﴿**قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ**﴾[4]. وذلك حينما قالت بنوا إسرائيل حاشا رجلين: ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ**﴾[5].

وعاقبهم بتسليط عباده الأشدَّاء عليهم: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ في الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَ فَإِذَا**

1- إرميا 7: 8-10

2- تثنية 4: 25- 27.

3- المائدة 61.

4- المائدة: 26.

5- المائدة: 24.

جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوئُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾[1].

وكتبُهُم التي بين أيديهم اليوم تروي من ذلك؛ فورد في "سفر أشعيا": « **اسمعي أيَّتُها السماوات؛ وأصغي أيَّتُها الأرض، لأنَّ الرَّبَّ يتكلَّم: ربَّيْتُ بنينَ ونشَّأتهم، أمَّا هم فعصوا عليَّ. الثور يعرف قانيه، والحمار معلف صاحبه، أمَّا إسرائيلُ فلا يعرف، شعبي لا يفهم. ويلٌ للأمّةِ الخاطئةِ، الشَّعبِ الثقيلِ الإثمِ، نسلِ فاعلي الشّر، أولادِ مفسدينَ، تركوا الرَّبَّ، استهانوا بقُدُّوس إسرائيل، ارتدُّوا إلى وراءٍ»**[2].

وكذا ورد في "سفر العدد" أنَّ الله تعالى أهلك بالوباء أربعة عشر ألف وسبعمائة، عقوبة لهم على تذمُّرهم على موسى وهارون، وإليك النَّصَّ في ذلك: « **فجاء موسى وهارونُ إلى قُدَّام خيمة الاجتماع؛ فكلَّمَ الرَّبُّ موسى قائلًا: « أُطلعا من وسط هذه الجماعة، فإنّي أفنيهم بلحظةٍ»**... فكان الذين ماتوا بالوباء أربعة عشر ألفا وسبع مئةٍ عدا الذين ماتوا بسبب قورح »[3].

وعلى الرّغم من هذه العقوبات المتتالية، إلا أنّهم كانوا لا ينزعون عن غَيِّهم إلا قليلا، ولم يزالوا يتذمَّرون، فمثلا بعد الحادثة السَّابقة الذِّكر، تمنَّوا أن لو كانوا أهلكهم الرَّبُّ كما أهلك أولئك، على أن يبقوا على حالهم مع موسى وهارون عليهما السَّلام، ففي "سفر العدد" دائمًا نجد الآتي: « **ولم يكن ماءٌ للجماعة فاجتمع على موسى وهارون. وخاصم الشَّعبُ موسى وكلَّموه قائلين :« ليتنا فنينا فناء إخوتنا أمام الرَّبِّ. لماذا أتيتما بجماعة الرَّبِّ إلى هذه البرِّيَّة لكي نموت فيها نحن ومواشينا؟ ولماذا أصعدتمانا من مصر لتأتيا بنا إلى هذا المكان الرَّديء؟ ليس هو مكان زرع وتينٍ وكرمٍ ورمَّانٍ، ولا فيه ماءٌ للشُّرب»»**[4].

1- الإسراء 4-8.

2- أشعيا 1: 2-4

3- العدد16: 43-45.

4- العدد 20: 2-5

ثمَّ يخبرنا الله تعالى أنَّ بني إسرائيل استوجبوا بكلِّ ذلك الغضب واللعن – إلَّا من صلُحَ منهم–؛ وممَّا أخبرنا قولُهُ تعالى: ﴿**فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾[1]. وقال عزَّ من قائلٍ: ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضبٍ مِّنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِم المسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُون بآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾[2]...الخ.

ولَعنت أنبياء منهم الكفرةَ منهم: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾[3] وقد ورد في إنجيل متَّى أنَّ المسيح قال لجمهور اليهود من الفرِّيسيين والكتبة :«**ويلٌ لكم أيّها الكتبة والفرِّيسيون المراؤون، لأنَّكم تبنون قبور الأنبياء، وتزيِّنون مدافن الصدِّيقين، وتقولون لو كنَّا في أيَّام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء. فأنتم تشهدون على أنفسكم أنَّكم أبناء قتلة الأنبياء... أيُّها الحيَّاتُ أولاد الأفاعي، كيف تهربون من دينونة جهنَّم. لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبةً. فمنهم تقتلون، وتصلبون، ومنهم تجلدون في مجامعكم، وتطردون من مدينةٍ إلى مدينةٍ؛ لكي يأتي عليكم كلُّ دمٍ زكيٍّ سُفك على الأرض من دم هابيل الصدِّيق إلى دم زكريا بن برخيَّا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح. الحقَّ أقول لكم: إنَّ هذا كلَّه يأتي على هذا الجيل**»[4]. بل قد حاولوا قتل المسيح بن مريم: « **حينئذٍ اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشَّعب إلى دار رئيس الكهنة الذي يدعى: "قيافا" وتشاوروا لكي يمسكوا يسوع بمكرٍ ويقتلوه؛ ولكنَّهم قالوا: ليس في العيد لئلا يكون شغبٌ في الشَّعب**»[5].

1– البقرة: 90.

2– آل عمران: 112.

3– المائدة: 78–79.

4– متى 23:29–36.

5– متى 26: 3–5.

وبعد هذا الذي سقناه في الإطار العام لهذا النموذج؛ نتناول في العناصر المتبقية من هذه المقالة الكلام عن انتفاء التعظيم من كثير من بني إسرائيل لله تعالى، وفق ما قصَّه الله تعالى علينا في القرآن الكريم.

2/ انتفاء التعظيم بالكفر والإشراك

وبداهةً أنَّ الشرك بالله تعالى هو أعظم إهانة للذات الإلهية، على النقيض تمامًا من واجب تعظيمه تعالى؛ وقد أخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم أنَّ بني إسرائيل قوم كفر كثير منهم بالحق إذا جاءهم؛ ككفرهم بالمسيح عليه السلام، والافتراء على أمِّه البتول: ﴿**وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا**﴾[1]. وكان حنينهم يزداد إلى عبادة الأوثان كلَّما ارتقت بهم الأنبياء في مدارج التوحيد، بل حدث منهم ذلك وقد كانوا للتوِّ أُخرجوا بآيةٍ من مصر، من بعد أن كادوا يُهلِكُهم فرعونُ وجنودُه، ومن بعد ما شاهدوا بأعينهم آيات الله الباهرات: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[2]. فهم كما قال تعالى فيهم: ﴿**فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ**﴾[3].

وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾[4].

ومِمَّا في أيديهم من الكتاب اليوم ما يشهد عليهم؛ من ذاك ما ورد في "سفر العدد" أنَّ الربَّ قال: « **حتَّى متى يهينني هذا الشَّعب؟ وحتَّى متى لا يصدِّقونني بجميع الآيات التي عملت في وسطهم؟**»[5].

1- النساء: 156.

2- الأعراف: 138-139.

3- البقرة: 88.

4- البقرة: 93.

5- العدد 14: 11

وورد في "سفر القضاة" أنَّ بني إسرائيل من بعد النبيِّ: "يوشع بن نون" وجيله ارتدُّوا فجاء فيه ما نصُّه: «**وفعل بنو إسرائيل الشرَّ في عيني الرَّبِّ، وعبدوا البعليم، وتركوا الرَّبَّ إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر، وساروا وراء آلهةٍ أخرى من آلهة الشُّعوب الذين حولهم، وسجدوا لها، وأغاظوا الرَّبَّ، تركوا الرَّبَّ وعبدوا البعل وعشتاروت. فَحَمِيَ غضب الرَّب على إسرائيل، فدفعهم بأيدي ناهبين نهبوهم؛ وباعَهُم بيد أعدائهم حولهم، ولم يقدروا بعدُ على الوقوف أمام أعدائهم؛ حيثما خرجوا كانت يد الرَّبِّ عليهم للشرِّ كما تكلَّم الرَّبُّ، وكما أقسم الرَّبُّ لهم. فضاق بهم الأمر جدًّا**».[1]

وتكرَّرت منهم الرِّدَّة عدَّة مرَّات، في هذه الحقبة من تاريخ بني إسرائيل التي تدعى بـ "فترة القضاة"، ولنتأمَّل هذه الفقرة من "سفر القضاة"، والتي تصف تلك الحقبة الزمانية من تاريخ بني إسرائيل: « **وعند موت القاضي كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم، بالذهاب وراء آلهة أخرى ليعبدوها ويسجدوا لها؛ لم يكفُّوا عن أفعالهم، وطريقهم القاسية؛ فحَمِيَ غضبُ الرَّبِّ على إسرائيل...**»[2].

وقصَّةٌ أخرى في "سفر العدد": « **وأقام إسرائيل في شطِّيم؛ وابتدأ الشَّعب يزنون مع بنات موآب. فدعون الشَّعب إلى ذبائح آلهتهنَّ، فأكل الشَّعب وسجدوا لآلهتهنَّ. وتعلَّق الشّعب ببعل فغور. فحمي غضب الرَّبِّ على إسرائيل. فقال الرَّب لموسى : « خذ جميع رؤوس الشَّعب وعلِّقهم للرَّبِّ مقابل الشَّمس، فيرتدَّ حُمُوُّ غضب الرَّبِّ عن إسرائيل». فقال موسى لقضاة إسرائيل :« اقتُلوا كلَّ واحدٍ قومُهُ المتعلِّقين ببعل فغور»**»[3]. وعوقبوا بالوباء : فـ «**كان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفاً**»[4].

1- يوشع 2: 11-15

2- القضاة 2: 19-20

3- العدد 25: 1-5

4- العدد 25: 9.

وثمرةُ هذا العرض من الهداية – أو بيان الكلِّية أو الأصل القرآني– والذي يمكنُنا من البناء عليه في زماننا هذا؛ هو أنَّ التوحيد اليهودي ليس في الواقع توحيدًا خالِصًا، بل شَابَهُ – ولا يزال– الدَخَلُ منذ بداياته الأولى؛ وهو ليس نموذجًا للاتِّباع، بل هو للحَذَر من الوقوع في مثله؛ فضلًا أن ينخرط المؤمنون في مذاهبَ، أو اتِّجاهاتٍ تجمع بينه وبين التوحيد الحقِّ الذي جاءنا في القرآن الكريم؛ كالقولِ بوحدة الأديان؛ أو الوصف بالأوصاف الجزافية كأن يُقال: " الأديان التوحيديَّة الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام"...الخ.

3/ انتفاء التعظيم بالظلم في صفات الله

وقد اشتهر من قصص بني إسرائيل سوء قِيلهم بغيرما أدبٍ مع ربِّهم بوصفه بما لا يتعارض مع التعظيم الواجب له؛ قال الله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾[2]. فعمومًا ديدن بني إسرائيل إساءة القولِ: ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾.[3] ومنه قول طائفةٍ منهم ببنوَّة عزيرٍ لله تعالى: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**﴾.[4]

وفي التوراة التي بين أيديهم ينسبون سوء الأدب مع ربِّهم لأنبياء – وحاشاهم من ذلك– وهم في الوقت ذاته ينتقصون من الله تعالى؛ من مثلِ ما ورد في "سفر

1- المائدة 64.

2- آل عمران181.

3- النساء: 46.

4- التوبة: 30.

الخروج" أنَّ الله تعالى أخبر موسى أنَّ بني إسرائيل قد اتَّخذوا عجلا، وهم يعبدونه، وقال له: « **فالآن اتركني ليحمَى غضبي عليهم وأُفنيَهم، فأصيِّرك شعبا عظيما**»[1] **وههنا كلامٌ لا مُعتَرَض عليه؛ ولكنَّ الموقف الذي نسبوه إلى موسى عليه السَّلام كان عجبًا**: « **فتضرّع موسى أمام الرَّبِّ إلهِهِ وقال : "لماذا ياربُّ يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر بقوَّة عظيمة وبدٍ شديدة. لماذا يتكلَّم المصريون قائلين: أخرجهم بخبثٍ ليقتُلهم في الجبال، ويفنيَهُم عن وجه الأرض. ارجع عن حموّ غضبك، واندم على الشرّ بشعبك..." فندم الرَّبُّ على الشرّ الذي قال إنّه يفعله بشعبه**»[2]. فالعجب من تصوير عدم تأدب موسى مع ربِّه – افتراءً عليه– يكاد ينقضي حين ترى أنَّ الرَّبَّ لم يتقبَّل ذلك وحسب؛ بل ندم هو وتراجع أمام سوء الكذب المفترَى.

وصورةٌ أخرى كذلك تُنسَب لموسى، بالشناعة ذاتها؛ وردت في "سفر العدد"، حين تذكَّر بنو إسرائيل طعامَهُم في مصر: السمك والقثّاء والبطّيخ والكرّاث والبصل والثّوم، وقالوا: «**من يطعمنا لحمًا؟**». ورد بعدها الآتي :« **فلمَّا سمع موسى الشّعب يبكون بعشائرهم، كلُّ واحدٍ في باب خيمته، وحمي غضبُ الرَّبِّ جدًّا، ساء ذلك في عيني موسى. فقال موسى للرَّبِّ :« لماذا أسأتَ إلى عبدك؟ ولماذا لم أجد نعمةً في عينيك؛ حتَّى إنَّك وضعتَ ثقل جميع هذا الشَّعب عليَّ؟ ألعلِّي حَبَلْتُ بجميع هذا الشَّعب؟ أو لعلِّي ولدته، حتَّى تقول لي: احمله في حضنك كما يحمل المربِّي الرَّضيعَ، إلى الأرض التي حلفت لآبائه؟ من أين لي لحمٌ حتَّى أعطي جميع هذا الشَّعب؟ لأنَّهم يبكون عليَّ قائلين: أعطنا لحما لنأكل. لا أقدر أنا وحدي أن أحمل جميع هذا الشعب لأنَّه ثقيلٌ عليَّ. فإن كنتَ تفعل بي هكذا، فاقتُلني قتلًا إنْ وجدتُ نعمة في عينيك فلا أرى بليَّتي** »»[3].

وقريبًا من ممَّا سبقَ، ما أوردوه في نفاذ إرادة العبد على الرَّب ممَّن هو نبيٌّ كذلك والذي سكن في علِّيَّة لامرأةٍ أرملةٍ، وفي تلك الفترة قبض الرَّبُّ ابنَها: «**فقال لها:**

1- الخروج 32:10

2- الخروج 32: 11،12،14

3- العدد11: 10-15

أعطني ابنك! وأخذه من حضنها وصعد به إلى العُلِّيَّة التي كان مقيماً بها، وأضجعه على سريره، وصرخ إلى الربِّ وقال: أيُّها الربُّ إلهي، أأيضاً إلى الأرملة التي أنا نازلٌ عندها قد أسأتَ بإماتتك ابنَها؟ فتمدَّد على الولد ثلاث مرَّاتٍ، وصرخ إلى الربِّ، وقال: يا ربُّ إلهي، لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه. فسمع الربُّ لصوت إيليَّا، فرجعت نفس الولد إلى جوفه. فأخذ إيليا الولد ونزل به من العلِّيَّة إلى البيت، ودفعه لأمِّهِ، وقال إيليَّا: انظري! ابنك حيٌّ، فقالت المرأة لإيليا: هذا الوقت علمت أنَّك رجل الله، وأنَّ كلام الربِّ في فمك حقٌّ»[1].

وورد كثيرٌ من سيِّءِ وصف ربِّ الأرباب؛ ومن ذلك مثالٌ ونختم به، وهو وصفه بالندم: « **ورأى الرَّبُّ أنَّ شرَّ الإنسان قد كثُرَ في الأرضِ؛ وأنَّ كلَّ تصوُّرِ أفكارِ قلبِهِ إنَّما هو شرِّيرٌ كلَّ يومٍ. فَحزِن الرَّبُّ أنَّه عمِلَ الإنسانَ في الأرضِ؛ وتأسَّفَ في قلبِهِ»**[2].

وثمرة الهداية ههنا، أو الكلِّيَّة أو الأصل القرآني –بالإضافة إلى الهداية التي تحدَّثنا عنها في توحيد العبادة– هي أن تعظيم الله تعالى يقتضي أن يكون بالطريقة التي يخبر بها الله تعالى عن اسمه ووصفه العظيمين؛ وألَّا يُنال جانبهما لا بزعم نيَّةٍ حسنةٍ ولا سيِّئها؛ وطريق التعظيم ههنا أن يكون الخبرُ من العظيم العالم بذاته وصفاته وأسمائه؛ والنموذج اليهودي مليءٌ بإساءة الوصف للذات الإلهية؛ والانحرافُ فيه عندهم هو منازعة الله في ذلك من دون التأدُّب معه؛ ويمكن القولُ إنَّ بعض ما جرى في تاريخ علم الكلام كان أحيانًا فيه سيرٌ على خطاهم.

4/ انتفاء التعظيم بتضييع كلمات الله وكتابه وكتم العلم المستأمنين عليه

فإنَّ الله تعالى أنزل الهدى في الكتاب واستحفظ الناس عليه؛ فيكون تضييعه، أو كتمه، أو التصرُّف فيه، تضييعًا لواجب تعظيمِ مُنزل الكتاب. قال تعالى: ﴿ **كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا**

1- 1 ملوك 17: 19-24.

2- تكوين 6: 5-6.

يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[1] وقال تعالى: **﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَاب وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**[2].

وإهانتُهم لما أنزل الله من الكتاب ناتجة عن خُلَّتين بيَّنهما الله تعالى فيهم: إحداهما: خيانة الأمانة: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾**[3]. والأخرى: نقض العهود: **﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾**[4]. وقال تعالى: **﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**[5].

وصار لبس الحق بالباطل متصاحبًا لديهم مع كتم الحقِّ الذي يعلمون: **﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**[6].

وجاء في السِّيرة لابن هشام – وغيره– عن محمّد بن إسحاق؛ قال: حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجالٍ من قومه قالوا :« إنَّ ممَّا دعانا إلى الإسلام – مع رحمة الله تعالى وهداهُ – لَمَا كنَّا نسمع من رجال يهود. كنَّا أهل شرك، أصحابَ أوثانٍ؛ وكانوا أهلَ كتابٍ عندهم علمٌ ليس لنا؛ وكانت لا تزالُ بيننا وبينهُم شرورٌ. فإذا نِلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا إنَّه تَقَارَب زمانُ نبيٍّ يُبعث الآن؛ نقتُلُكُم معه قَتلَ عادٍ وإرم. فكنَّا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم؛ فلمَّا بعث الله رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، أجبناه

1– آل عمران: 86.

2– آل عمران: 78.

3– آل عمران: 187.

4– المائدة: 13

5– البقرة: 110.

6– آل عمران: 71.

حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعَّدوننا به؛ فبادرناهم إليه، فآمنَّا به وكفروا به؛ ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات (البقرة 89)»[1].

وأخرج البيهقيُّ عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه؛ أنَّ غلامًا يهوديًّا كان يخدُمُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فمرض؛ فأتاه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يعودُهُ؛ فوجد أبَاهُ عند رأسه يقرأ التَّوراة. فقال له رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم :« يا يهوديُّ: أنشدك بالله الذي أنزل التَّوراة على موسى: هل تجد في التَّوراة صفتي ومخرجي؟» قال :«لا». قال الفتى :« بلى والله يا رسول الله، إنَّا نجد في التَّوراة نَعتَكَ ومخرجك؛ وإنِّي أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّك رسولُ الله ». فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم :« أقيموا هذا من عند رأسه؛ وَلُوا أخاكم»[2].

وأمَّا عن ثمرة ما سبق؛ فإنَّ فيه التحذير من الاستهانة بكلمات الله؛ وعدم القيام برعايتها وحفظها، وبثِّها، والدعوة إليها؛ فضلًا عن أن يُتصرَّف فيها – ولو بالنيَّة الظاهرة حسنةً– لا بالتبديل ولا بالتغيير، إضافةً أو حذفًا؛ أو كتمًا؛ أو ليًّا للِّسان؛ أو تغيير المرادِ مع إبقاء حرفه ونظمِهِ؛ أو تجريء أهل الباطل عليه... الخ.

5/ انتفاء التعظيم من خلال التحايل على أمر الله تعالى ونهيه والافتراء عليه

والمعلوم من شأنهم أنَّهم أهل حيلٍ: ليحلُّوا حرامًا أو يحرِّموا حلالًا؛ وخير ما يشهد عليهم في ذلك قصّة أصحاب السبت، قال الله تعالى: ﴿ **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾[3].

كما شهد الله تعالى عليهم بأنَّهم أهلُ ربًا وأكلٍ لأموال النَّاس بالباطل وأكلٍ للسّحت: ﴿**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ**

1– أبو محمَّد عبد الملك بن هشام: **سيرة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم**؛ تحقيق محمَّد محي الدّين عبد الحميد، (دط)، مطبعة حجازي: القاهرة– مصر، 1937م، (231/1).

2– البيهقي، وقال ابن تيمية في **الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دين المسيح**، [(دط)، دار ابن خلدون: الإسكندريَّة– مصر، (دت)، (304/3): « بإسنادٍ صحيح ».

3– الأعراف: 168.

اللهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1] وقال تعالى:﴿ **فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾**[2].

كما إنَّه لا حرج عندهم في غير اليهوديِّ:_﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**[3].

وفي الإنجيل الذي بين يدي النَّصارى اليوم، وصفٌ لهذه الطبائع، ينسبونه للمسيح: « **حينئذٍ خاطب يسوع الجموع وتلاميذَهُ قائلًا: على كرسيِّ موسى جلس الكتبة والفرِّيسيُّون؛ فكلُّ ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه. ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا؛ لأنَّهم يقولون ولا يفعلون».**[4]

وقرَّع كذلك بني إسرائيل في زمانه قائلًا: « **لكن ويلٌ لكم أيُّها الكتبة والفرِّيسيُّون المراؤون؛ لأنَّكم تُغلقون ملكوت السماوات قدَّام النَّاس، فلا تدخلون أنتم، ولا تدعون الدَّاخلين يدخلون. ويلٌ لكم أيُّها الكتبة والفرِّيسيُّون المراؤون، لأنَّكم تأكلون بيوت الأرامل، ولعلَّةٍ تطيلون صلواتكم، لذلك تأخذون دينونةً أعظم».**[5]

ومن ثمرة ما سبق أنَّ تعظيم الآمر الناهي لا يكون إلَّا باتِّباع الأمر والنهي تسليمًا؛ وأشنعُ ما يمكن إتيانُهُ أن يتحايل العبد في التلاعب بالشَّريعة؛ وقد عرف بعض ذلك في تاريخ بعض المشتغلة بالفقه؛ أو من يزيِّن للناس سوء العمل بالتلاعبات التي

1- النساء: 160-161.

2- المائدة: 61-63

3- آل عمران: 75.

4- متى 23: 1-3.

5- متى 23: 29-36

تستخدم ما جاءت به الشريعة – وهي الحق– للتوصل إلى عكس الأحكام، وقلب محرَّمٍ حلالًا؛ أو العكس.

6/ انتفاء التعظيم بإهانة رسله وقتلهم

وهذا مُبْتَنٍ على صفةٍ لزمتهم؛ وهي أنَّهم أشدُّ النّاس عداوةً لأهل الحقّ؛ قال تعالى: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اليَهُودَ والَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾[1].

وقتلُهُم للأنبياء معروفٌ: ﴿**لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ**﴾[2]. وإذايتهم لموسى عليه السلام ذات شهرةٍ جدًّا: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا**﴾.[3]

ونماذج إيذاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام على وجه التحديد في التوراة كثيرةٌ جدًّا منها ما ورد في "سفر الخروج"[4]: « **وقال الرَّبُّ لموسى :« رأيت هذا الشَّعب، وإذا هو شعب صُلب الرَّقبة»»**. وفي نفس السفر:« **وكان الرّب قد قال لموسى :« قل لبني إسرائيل:أنتم شعب صلب الرَّقبة، إن صعدت لحظة واحدة في وسطكم أفنيتُكم»»**[5].

وورد أنَّ قورح وداثان و أبيرام وأون، مع جماعاتهم، شقُّوا عصا الطَّاعة على موسى عليه السَّلام ومّما ورد في "سفر العدد": « **فأرسل موسى ليدعوا داثان وأبيرام ابني ألياب؛ فقالا :« لا نصعد، أقليلٌ أنَّكَ أصعدتنا من أرضٍ تفيض لبنا وعسلا،**

1- المائدة: 82.

2- المائدة: 70.

3- الأحزاب: 69. وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود قال: قسم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ذات يومٍ قسمًا، فقال رجلٌ: إنَّ هذه لقسمةٌ ما أريد بها وجه الله، فذُكِرَ ذلك للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فاحمرَّ وجهُهُ، ثمَّ قال: رحمة الله على موسى، لقد أوذِيَ أكثر من هذا، فصبر. فتح القدير (1187/22).

4- الخروج 32: 9

5- خروج 33: 5

لتميتنا في البرِّيَّة حتَّى تترأَّس علينا ترؤسًا؟ كذلك لم تأت بنا إلى أرض تفيض لبنا وعسلا، ولا أعطيتنا نصيب حقول وكروم. هل تقلع أعين هؤلاء القوم؟ لا نصعد»»[1].

وكان عاقبة هؤلاء أن ابتلعتهم الأرض وأموالهم ثمّ انطبقت عليهم، كما ذكروا.

وجاء عندهم في "سفر الخروج" حين ضاق ببني إسرائيل أن لا يجدوا ما يأكلون :« **فتذمَّر كلُّ جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون في البرِّيَّة. وقال لهما بنو إسرائيل :« ليتنا متنا بيد بيد الرَّبِّ في أرض مصر، إذ كنّا جالسين عند قدور اللَّحم نأكل خبزًا للشبع؛ فإنَّكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تُميتا كلَّ هذا الجمهور بالجوع»»**[2].

ونصٌّ آخر في "سفر العدد": « **وارتحلوا من جبل هور في طريق بحر سوف ليدوروا بأرض أدوم؛ فضاقت نفس الشّعب في الطَّريق. وتكلَّم الشّعب على الله وعلى موسى قائلين:« لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البرِّيَّة؟ لأنَّه لا خبزَ ولا ماءٌ؛ وقد كرهت أنفسنا الطَّعام السّخيف». فأرسل الرَّبُّ على الشَّعب الحيَّات المحرقة، فلدغت الشَّعبَ، فمات قومٌ كثيرون من إسرائيل»**[3].

واختلافُهُم على أنبيائهم، وتعنُّتهم الشَّديد في القرآن الكريم معلومٌ كذلك؛ ولو كان المثل الوحيد لذلك قصَّةُ البقرة التي سميت بها السورة التي تتلو الفاتحة لكفى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا ربَّكَ يُبيِّنُ لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا**

1- العدد 16: 12-14

2- الخروج 16: 2-3

3- العدد 21: 4-6

ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[1].

وكُفرُهُم زمان النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم به وبنسبة الكفر لسليمان في آنٍ معًا: **﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِين أُوتُوا الكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحرَ﴾**[2]. قال الشوكاني: «ولم يتقدم أنَّ أحداً نسب سليمان إلى الكفر، ولكن لما نسبته اليهود إلى السحر صاروا بمنزلة من نسبه إلى الكفر؛ لأنَّ السحر يوجب ذلك، ولهذا أثبت الله سبحانه كفر الشياطين»[3].

وقد ورد في الكتاب المقدَّس عندهم في سفر الملوك أنَّ خاتمة سليمان عليه السَّلام كانت خاتمة كفرٍ وسوءٍ – افتراءً عليه وعلى ربِّهِ – قالوا: « **وأحبَّ سليمان نساءً غريبة كثيرة مع بنت فرعون: موآبيات وعمونيات وأدوميَّات وصيدونيَّات وحثِّيات، من الأمم الذين قال عنهم الرّب لبني إسرائيل :« لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم؛ لأنّهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم ». فالتصق سليمانُ بهؤلاء بالمحبَّة، وكانت له سبع مئة من النِّساء السيِّدات، وثلاث مئة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمان شيخوخة سليمان أنَّ نساءه أملن قلبه وراء آلهةٍ أخرى؛ ولم يكن قلبُهُ كاملًا مع الرَّبِّ إلهِهِ كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصَّيدونيِّين، وملكوم رجس العمُّونيين. وعمل سليمان الشرَّ في عينيْ الرَّبِّ، ولم يتَّبع الرَّبَّ تمامًا كداود أبيه. حينئذٍ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي اتُّجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمُّون؛ وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبَّات اللَّواتي كُنَّ يوقدن ويذبحن لآلهتهنَّ. فغضب الرَّبُّ على سليمان لأنَّ قلبَه مال عن الرَّب إله إسرائيل الذي تراءى له مرَّتين. وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتَّبع**

1- البقرة: 67-71.

2- البقرة: 101-102.

3- فتح القدير، مرجع سابق، (79/1).

آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرَّبُّ. فقال الرَّبُّ لسليمان :« من أجل أنَّ ذلك عندك، ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها، فإنِّي أمزِّق المملكة عنك تمزيقًا، وأعطيها لعبدك»»[1].

وافتُرِيَ على هارون مثلُ ذلك؛ وأنَّه هو من صنع العجل لبني إسرائيل، بل وبنى له مذبحًا؛ كلُّ ذلك في "سفر الخروج": « **ولمَّا رأى الشَّعب أنَّ موسى أبطأ في النُّزول من الجبل، اجتمع الشَّعب على هارون، وقالوا له:« قم اصنع لنا آلهةً تسير أمامنا، لأنَّ هذا موسى الرَّجل الذي أصعدنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه ». فقال لهم هارون :« انزعوا أقراط الذَّهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وآتوني بها ». فنزع كلُّ الشَّعبِ أقراطَ الذَّهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوَّره بالإزميل، وصنعه عجلا مسبوكًا. فقالوا: « هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر». فلمَّا نظر هارون بنى مذبحا أمامه، ونادى هارون وقال: « غدا عيدٌ للرَّبِّ ». فبكَّروا في الغد، وأصعَدُوا محرَّقَاتٍ، وقدَّموا ذبائح سلامةٍ. وجلس الشَّعب للأكل والشُّرب ثمَّ قاموا للَّعب »**[2]. ومن الفظائع أنَّهم قالوا إنَّ هارون عرَّى الشَّعبَ الذي كان يرقص حول العجل حيث قالوا: « **ولمَّا رأى موسى الشَّعب أنَّه معرَّى – لأنَّ هارون كان قد عرَّاه للهزء بين مقاوميه »**[3].

وأساءوا إلى لوطٍ عليه السلام بشناعاتٍ لا توصف؛ بأنَّه قد زنى بابنتيه، أو هما زنتا به، البكر اليوم والصغرى في غدها، وردت القصَّةُ في "سفر التَّكوين": « **وصعد لوطٌ من صوغر وسكن في الجبل، وابنتاه معه، لأنَّه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصَّغيرة :« أبونا قد شاخَ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كلِّ الأرض. هلمَّ نسقي أبانا خمرًا ونضطجِع معه، فنُحيي من أبينا نسلًا ». فسقتا أباهما خمرا في تلك اللَّيلة، ودخلت البكر واضطجعت**

1- 1ملوك 11: 1-11

2- الخروج 32: 1-6

3- الخروج 32: 25

مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أنَّ البكر قالت للصَّغيرة :« إنِّي قد اضطجعت البارحة مع أبي؛ نسقيه خمرا اللَّيلةَ أيضا فادخلي اضطجعي معه، فنُحيي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرا في تلك اللَّيلة أيضا، وقامت الصّغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها، ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنًا ودعت اسمه "موآب" وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصَّغيرة أيضا ولدت ابنًا ودعت اسمه بنْ عمِّي، وهو أبو بني عمُّون إلى اليوم»[1].

وثمرة ما سبق أن يُدرك العبد أنَّ إهانة من أرسله العظيمُ ليست إهانةً فقط للمرسلين وإنَّما للذي أرسلهم؛ وإذايتهم منكرةٌ، وقتلهم أشنع الشنيع؛ وقد كان ذلك من اليهود مع معرفتهم للحق الذي جاءتهم به الرسل؛ ووجه الحذر أن يخالف المؤمنون هدي النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم، أو عدم إنزاله المنزلة التي رفعه الله تعالى إياها؛ وعدم الرغبة عن سنَّته، والوحي الذي جاء به؛ وهي مسائل عرفها كذلك التاريخ الإسلامي ووقعت من مسلمين.

7/ انتفاء التعظيم بالإضلال والإفساد في الأرض.

والحامل على إفسادهم في الأرض والإضلال أربعةُ أمورٍ رئيسةٍ: الحسد والبغي وقسوة القلب، والجبن؛ فأمَّا الحسد فقال الله تعالى: **﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ﴾**[2]. قال الشوكاني :«فيه إخبار المسلمين بحرص اليهود على فتنتهم، وردِّهِم عن الإسلام، والتشكيك عليهم في دينهم»[3].

وأمَّا البغيُ فمن قوله تعالى: **﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾**[4]. أخرج الطبري في تفسيره عن السدي: **﴿بَغْيًا﴾**، قال: بغوا

1- التّكوين 19:30-38

2- البقرة: 109.

3- فتح القدير، مرجع سابق، (85/1).

4- البقرة: 90.

على محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، وحسدوه، وقالوا: إنما كانتِ الرُّسُلُ من بني إسرائيل، فما بالُ هذا من بني إسماعيلَ؟ فحسدُوهُ[1].

وأخرج البخاري عن أنسٍ أنَّ عبد اللهِ بنَ سلَّامٍ بلَغَهُ مقدَمُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم المدينةَ، فأتاه يسأله عن أشياءَ؛ قال :« إنِّي سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهنَّ إلا نبي:ما أوَّل أشراط السَّاعة، وما أوَّل طعام يأكله أهلُ الجنَّةِ، وما بالُ الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمِّه؟ » قال :« أخبرني بهنَّ جبريل آنفًا»، قال ابن سلام: «ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة »، قال :« أمَّا أوَّلُ أشراط السَّاعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأمَّا أوَّل طعام يأكله أهل الجنَّة فزيادة كبد الحوت، وأمَّا الولد فإذا سبق ماء الرَّجل ماءَ المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرَّجل نزعت الولدَ ». قال :«أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّك رسول الله. قال يارسول الله إنّ اليهود قومٌ بُهُتٌ، فاسألهم عنِّي قبل أن يعلموا بإسلامي ». فجاءت اليهود فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم :« أيُّ رجلٍ عبدُ الله بن سلام فيكم ؟» قالوا:« خيرُنا وابن خيرنا، وأفضلُنا وابن أفضلنا». فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم :« أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟». قالوا :« أعاذه الله من ذلك». فأعاد عليهم فقالوا مثل ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال :« أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله »، قالوا :« شرُّنا وابن شرِّنا»، وتنقَّصوه، قال :« هذا كنت أخاف يا رسول الله »[2].

وأمَّا قساوة القلب فقال الله عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾[3]. وقال كذلك عنهم: ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ**﴾[1].

1- أبو جعفر محمَّد بن جرير الطبري: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، (ط2) تحقيق محمود وأحمد شاكر، مكتبة ابن تيمية: القاهرة- مصر، (2/ 342).

2- البخاري: مناقب الأنصار برقم 3938؛ وورد قبل ذلك في أحاديث الأنبياء برقم 3329.

3- البقرة: 74.

وأمَّا جُبنهم المرتبط بكيدهم فممَّا يؤخذ من قوله تعالى: ﴿**لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ**﴾[2]. وجبنُهم قُرِنَ بذكر اختلاف قلوبهم: ﴿**وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾[3] ﴿**بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى**﴾[4]..وقال تعالى: ﴿**وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ**﴾[5].

وقد جاء في كتابهم الذي بين أيديهم، في "سفر العدد"، في شأن أمرهم بقتال الجبابرة :« **فرفعت كلُّ الجماعةِ صوتهَا وصرخت، وبكى الشَّعبُ تلك اللَّيلة؛ وتذمَّرَ على موسى وعلى هارون جميعُ بني إسرائيل. وقال لهما كلُّ الجماعة :« ليتنا متنا في أرض مصرَ، أو ليتنا مُتنا في هذا القفر؛ ولماذا أتى بنا الرَّبُّ إلى هذه الأرض لنسقط بالسَّيف؟ تصيرُ نساؤُنا وأطفالُنا غنيمةً؛ أليس خيرًا لنا أن نرجعَ إلى مصرَ؟». فقال بعضُهُم لبعضٍ: « نقيمُ رئيسًا ونرجعُ إلى مصرَ»»**[6].

وامتزجت كلُّ تلك الصِّفات مع غيرها ليأتي إضلالهم لأهل الحقِّ، قال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَدَّت طَّائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾[7].

1- البقرة: 88. يقول الطبري في تفسيره (1/ 328): "بل أقصاهم الله وأبعدهم وطردهم وأخزاهم وأهلكهم بكفرهم وجحودهم آيات الله وبيِّناته، وما ابتعث به رسله، وتكذيبهم أنبياءه. فأخبر تعالى ذكرُهُ أنَّه أبعدهم منه ومن رحمته بما كانوا يفعلون من ذلك".

2- الحشر: 14.

3- المائدة: 64.

4- الحشر: 14.

5- الأعراف: 160.

6- العدد 14: 1-4

7- آل عمران: 69.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ والطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾[1].

وكذا الإفسادُ في الأرض وإشعال نيران الحروب؛ قال ذو الجلال والإكرام: ﴿ **كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ المفسِدِينَ**﴾[2].

ويذكرون في كتبهم أنَّ الرَّبَّ يبارك قتل النِّساءِ والأطفال والبهائم؛ وإنَّ "سفر يشوع" لخيرُ الأمثلة التي تُضرب؛ وممَّا ورد فيه من الأمثلة النماذج: « **لأنَّ الرَّبَّ قد أعطاكم المدينةَ، فتكون المدينةُ وكلُّ ما فيها محرَّمًا للرَّبِّ**»[3] ثمَّ تمَّ تنفيذُ ذلك « **وحرَّموا كلَّ ما في المدينة من رجلٍ وامرأةٍ، من طفلٍ وشيخٍ حتَّى البقر والغنم والحميرَ بحدِّ السيفِ** »[4]

وورد في شأن مدينة "عاي" الآتي: « **فكان جميعُ الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجالٍ ونساءٍ اثني عشر ألفاً جميعُ أهلِ عاي**»[5]. وليست عاي المدينة الوحيدة التي فُعل بها هكذا، بل قبلها أريحا، وبعدها مقيدة، ولبنة، ولخيش، وجازر، وعجلون، وحبرون، ودبير، وحاصور.

ويورِدُونَ أنَّ من آخر أعمال موسى قبل موته إرسالُهُ جيشًا قوامه اثني عشر ألف لينتقم من المديانيين، قالوا: « **فتجنَّدوا على مديان كما أمر الرَّبُّ وقتلوا كلَّ ذكرٍ. ومُلوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم:أويَ وراقم وصور وحور ورابع: خمسةَ ملوك مديان. وبلعام بن بعور قتلوه بالسَّيف. وسبَى بنو إسرائيل نساء مديان، وأطفالهم، ونهبوا جميع بهائمهم، وجميعَ مواشيهم، وكلَّ أملاكهم. وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم، وجميع حصونهم بالنَّار (...) فسخط موسى على وكلاء الجيش، رؤساء**

1- آل عمران: 51.

2- المائدة: 64.

3- يشوع 6: 16-17

4- يشوع 6: 21

5- يشوع 8: 25

الألوف، ورؤساء المئات القادمين من جند الحرب. وقال لهم موسى :« هل أبقيتم كلّ أنثى حيّةً؟ إنّ هؤلاء كنّ لبني إسرائيل، حسب كلام بلعام، سبب خيانةٍ للرَّبِّ في أمر فغور، فكان الوباء في جماعة الرَّبِّ. فالآن اقتُلُوا كلَّ ذكرٍ من الأطفال. وكلَّ امرأةٍ عرفت رجلًا بمضاجعة ذكرٍ اقتلوها. لكن جميع الأطفال من النِّساء اللَّواتي لم يعرفن مضاجعةَ ذكرٍ أبقوهنَّ لكم حيَّاتٍ»»[1].

وثمرة ما سبق أن يدرك المؤمن أنَّ الإفساد في الأرض والسعيُ بإيقاد الحروب؛ يتنافى مع تعظيم الرَّبِّ الذي لا يأمر إلَّا بما يُصلح الأرض التي استُخلف فيها الإنسانُ، وإلَّا ما يُصلح معايش النَّاس جميعًا؛ من أحقرها إلى جليلها. وأسوأ ذلك كلِّه أن يُنسب الإفساد إلى أمر الله وشريعته؛ فيُنسب الأمر لله تعالى.

خاتمة

في خاتمة هذه المقالة الموجزة نخلص إلى ثلاثة أمورٍ رئيسةٍ:

– في القرآن العظيم بيانٌ من طرقٍ وأساليب شتَّى لما ينبغي لله تعالى من التعظيم؛ ومن ذلك الهداية والإرشاد بالشواهد المخالفة للحق، حتَّى تُحذَرَ وتُجتنَب؛ حيثُ لا يُسار على الخطى ذاتِها، وإلا صِير إلى ما صاروا إليه من العقوبة أو العاقبة.

– نموذج بني إسرائيل الذي قُصَّ علينا في القرآن الكريم مليءٌ بنقيض التعظيم الواجب لله تعالى، في واجب توحيده، وفي ذاته وصفاته سبحانه وتعالى؛ وفي مُرسَلِيه؛ وفي كتبه وكلماته، وفي أمره ونهيه من تشريعه، وفي إضلال خلقه وإفساد معاشهم.

– إنَّ هذا النموذج القرآني لا يملك اليهود أن يدَّعوا فيه إهانتهم أو ادِّعاء توجيه خطاب كراهية ضدَّهم؛ لأنَّ ما يشهد عليهم من كتبهم هو أضعافٌ مضاعفة ممَّا توهَّموه.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن العظيم، برواية حفصٍ عن عاصم.

1- العدد 31: 7-10، 14-18.

- الكتاب المقدَّس، نسخة فان ديك (Arabic New Van Dyck Bible)، الإصدار الثالث، (ط4): القاهرة– مصر، 2006م.
- محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري: الجامع الصحيح، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، الدَّار الذَّهبيَّة: القاهرة– مصر.
- أبو جعفر محمَّد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (ط2) تحقيق محمود وأحمد شاكر، مكتبة ابن تيمية: القاهرة– مصر.
- محمَّد بن علي بن محمَّد الشَّوكاني: فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدِّراية من علم التفسير؛ اعتناء يوسف الغوش، (ط4)، دار المعرفة: بيروت– لبنان، 2007م.
- أبو محمَّد عبد الملك بن هشام: سيرة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تحقيق محمَّد محي الدّين عبد الحميد، (دط)، مطبعة حجازي: القاهرة– مصر، 1937م، (231/1).
- أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية: الجواب الصَّحيح لمن بدَّل دين المسيح، (دط)، دار ابن خلدون: الإسكندريَّة– مصر، (دت).